سلسلة إصـــــدارات
مؤسسة ديوان المسلم
(٤)

ولا يلتفت منكم أحد

أ . د / ناصر بن سليمان العمر

المشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم

الطبعة الأولى

هذا الكتاب تم تنزيله من موقع العقيدة
www.aqeedeh.com

العنوان البريدي:
book@aqeedeh.com

www.aqeedeh.com
www.islamtxt.com
www.ahlesonnat.com
www.isl.org.uk
www.islamtape.com
www.blestfamily.com
www.islamworldnews.com
www.islamage.com
www.islamwebpedia.com
www.islampp.com
www.videofarda.com

www.nourtv.net
www.sadaislam.com
www.islamhouse.com
www.bidary.net
www.tabesh.net
www.farsi.sunnionline.us
www.sunni-news.net
www.mohtadeen.com
www.ijtehadat.com
www.islam411.com
www.videofarsi.com

ح ناصر بن سليمان العمر، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

ولا يلتفت منكم أحد/ ناصر بن سليمان العمر – الرياض، ١٤٣٢هـ

٧٧ ص؛ ١٤ × ٢٠سم

ردمك: ٣–٨٢٨٠–٠٠–٦٠٣ ٩٧٨

١- القرآن – مباحث عامة ٢- القرآن- التفسير الحديث

أ- العنوان

ديوي: ٢٢٧.٦ ١٤٣٢/٨٦١٧

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٨٦١٧

ردمك: ٣–٨٢٨٠–٠٠–٦٠٣ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

مؤسسة ديوان المسلم

ص.ب ٩٢٤٠٤ الرياض ١١٦٨٤

هاتف: ٢٥٤٩٩٩٣ فاكس: ٢٥٤٩٩٩٦

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونتوبُ إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيراً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أمرنا بلزوم الجادَّة الموصلة إلى رضوانه سبحانه دون التواء أو تحوُّل عنها، ودون تعريجٍ أو التفاتٍ عن قصدها، يَمنةً

ويَسرةً، ومن ذلك أمرُه نبيَّه ﷺ والمؤمنين بالاستقامة، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود].

وحتى يسيرَ المرء على الجادَّة دون حَيْدة، فلابدَّ له من وضوح الرؤية، ومعرفة الهدف الذي يَقصد إليه، مع التركيز عليه، والابتعاد عمَّا يَشغل عنه.

ولهذا كانت السبيلُ واضحةً أمام أصحاب البصائر والنُّهى، وجدُّهم في السَّير عليه حثيثٌ، لا يلتفتون إلى كثيرٍ من الشَّواغل والملهيات، من شُبهات وشهوات، ويعرفون عيوبَ النَّفس التي يمكن أن توقفهم عن السَّير، والآفاتِ العارضة التي تقطع الطَّريق، يترسَّمون خطى سلفهم على ذلك النَّهج المبين الذي سار عليه الأنبياءُ والصِّدِّيقون والصَّالحون.

إنَّه منهج يدعو إلى السير بلا توانٍ، بل والمسارعة نحو مقصده الذي هو ابتغاء مرضاة ربه، فلا رياءٌ ولا سمعة، ولا طلبُ محمدة ولا مكانة بين الناس.

وكثير من الناس يَتيهون، في خضمِّ الحياة، عن سبيلهم الذي يجب أن يسيروا فيه ويستقيموا عليه، فيغيب الطريق عن بعضهم، وتغيب

الوسائل الصالحة لقطعه عن آخرين ، وقد يبتدئ بعضهم في السير ثم ينشغل عن مقصدِهِ السَّاعي إليهِ ومرادِه السَّائر نحوَه ، فنرى الانحرافَ بعد الاستقامة، والتساقطَ بعد الجدِّ والوثبِ، وأصلُ البلاء التفاتُ القلبِ عن القصد، ويتبعه التفاتُ البدن ولا بدَّ!

وقد دعاني ما تأملتُه في كتاب الله عزَّ وجلَّ من النَّهي عن الالتفات في مواضعَ، إلى استقصاءِ هذا المعنى، وملاحظةِ إشاراته والبحثِ في مغزاه ومدلولاته؛ فكانت هذه الكلماتُ، التي انطلقتُ فيها من دلالات الآية الكريمة: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود: ٨١/ الحجر:٦٥]، ورأيت فيها تقريراً لمنهاج تربويٍّ ينبغي لزومه، والسَّير على جادَّته، وهذا ما فصَّلَته هذه الرسالة.

فتحدثتُ عن النَّهي عن الالتفات، باعتباره سبيلَ سلامةٍ للسَّالك طريقَ الأنبياء ، وبيَّنتُ السببَ الذي دعاني للاسترسال في الموضوع ، وقبلَ تقريره أشرتُ إلى أصولٍ من أقوالِ أهل اللغة والتفسير حول الآية الكريمة، تُساعد على فهم إشاراتها، ثم ذكرتُ قصصاً من أخبار الأنبياء عليهم السلام، تُبين استمساكهم بالإمساك عن الصَّوارف في حياتهم، ثم تحدَّثت عن هذا المنهج في سنة محمد ﷺ، وكيف كان يتبدَّى في سيرته جليّاً.

وأوضحتُ أهمية الحذر من التفات القلب، لأنه سبيلُ السَّلامة من التفات المرء ببدنه؛ بأفعاله وأقواله، ثم تعرَّضتُ لبعض الأسباب التي تقطعُ الناس عن سبيلهم، وتجعلهم يلتفتون عن مقاصدهم.

وختمتُ الحديث بذكر الالتفات الجائز والرجوع إلى الحق والاهتمام بالمشورة، واللهَ أسأل أن يجعل هذه الكلمات من أسباب تثبيت من شاء من عباده على حفظ سبيل الاستقامة، وصيانةِ محارم الشَّريعة وحفظ عُرى الدِّين.

هذا مع علمي بأنِّي قد ذهبتُ بعيداً في دلالات آيتي هود والحِجر، فانتقلت للحديث في معانٍ دقيقة أحسبُ أنَّ الآيتين أرشدَتا إليها، وأحسب أنَّ للاسترسال في ذلك مناسبةً، والتفسيرُ بالإشارة من المسالك المرضيَّة عند أهل التَّحقيق إن كانت الإشارةُ مبنيَّةً على اعتبارٍ أو قياس صحيح، وكثيراً ما تكون من جملة دلالة الاقتضاء، واللهَ أسألُ السَّدادَ والهدايةَ إلى سبيل الرَّشاد.

المؤلف

١٤٣٢/٧/٢١هـ

القصيم/بريدة/مطلة

النهي عن الالتفات والمضي قدماً نحو الهدف المنشود

في القرآن الكريم جملةُ قصصٍ للأنبياء عليهم السَّلام، وفي كل قصَّةٍ دروسٌ عظيمة، وقد قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

ومن قصص القرآن قصةُ نبيِّ الله لوط عليه السلام، وقد ثنَّى الله خبرها في مواضع من كتابه، وبيّن سبحانه فيها معانيَ عظيمة، فممَّا بيّن ابتلاءُ نبيِّه لوط عليه السلام بقومه، وأمره لهم بالمعروف ونهيه إيَّاهم عن المنكر، في مقابل أمرهم له بالمنكر ونهيهم له عن المعروف! وصبره على ذلك حتى أنجاه الله ومن آمن معه.

والمتدبِّر في خبر هذا النَّبيِّ الكريم عليه السلام يلحظ هذه الآية الكريمة التي تكرَّرت في قصته مرتين، فقد وردت في سورة هود، وفي سورة الحِجر، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود: ٨١/ الحجر: ٦٥].

وفي الآية إشارةٌ ترشد قاصدَ السبيلِ، طالبَ السلامة، مريدَ النَّجاة، إلى منهاج الفلاح! ترشدنا إلى أن بلوغ الغايات وتحقيق الأهداف يقتضي نظراً إليها، وقصداً نحوها دون التفات مادِّيٍّ أو معنويٍّ بالجسد أو بالقلب ، وتُنبِّهنا لمعنىً عميقٍ آخر، وهو أنَّ من يلتفت عن غايته قد لا يبلغها بالكليَّة، وإن بلغ فسيتأخر ويسبقه غيرُه ممن جدَّ في السَّير واجتهد، وهذا في أحسن الأحوال! وعندها:

لَسَوفَ تَعَضُّ مِن نَدَمٍ عَلَيها وَما تُغني النَدامَةُ إِن نَدِمتا
إِذا أَبصَرتَ صَحبَكَ في سَماء قَد اِرتَفَعوا عَلَيكَ وَقَد سَفَلتا

إنَّ الأمر في هذه الآية: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لم يكن أمراً عابراً، بل فيه إشارةٌ لمنهاج قد وُضع لنبيِّ الله لوط ولسائر الأنبياء وكذا أتباعِهم، يُدرك ذلك المتأملَ في سِيَرِ الأنبياء والمرسلين عليهم وعلى نبيِّنا أفضلُ الصَّلاة والسلام، ومن دقَّق النَّظر وجد منهاجاً قوياً ساروا عليه منذ نطقهم بالرسالة وإلى أن فارقوا الدنيا، وسار عليه أتباعُهم الصادقون.

ومع أن هذا الأمر قد ورد في القرآن الكريم في موضعين، خطاباً مباشراً للوط عليه السلام بهذا النص، فقد جاء في مواضعَ أخرى من سير الأنبياء وقصصهم مما يؤكد دلالاته ويقرر إشاراته.

بل في نفس آية الحجر، يأتي التأكيد لمعنى الأمر المقدم، بأمر آخر في آخرها، فيقول سبحانه: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، وهذا التأكيد يدعونا إلى وقفة نطلب فيها فهم الدلالات ومعرفة المرامي والإشارات المناسبة المعتبرة، وذلك من جملة تدبر كتاب الله تعالى، بل يؤكده الأمر لنبيِّنا محمد ﷺ في آخر السورة: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[الحجر].

وحريٌّ بنا أن نقرِّر المعاني بدلالات الكتاب والسنة، اللَّذين هما مصدرا التلقي عن الله، واللذين هما ميزان قبول الأعمال وصحة المقاصد والأهداف والوسائل، والأمَّة ما حدثت فيها مظاهرُ الضعف والهوان، وما زلَّ من زلَّ إلاّ لأنه قد غفل عن مقررات الكتاب والسنة، وترك إرشاداتهما ودلالاتهما وإشاراتهما، وطفق يقتبسُ من الشرق أو الغرب، والنبي ﷺ يقول: «قد تركتُكم على البيضاءِ، ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها بعدي إلا هالك، ومن يَعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما

عـرفتم مـن سـنَّتي وسـنَّة الخلفـاء الرَّاشـدين المهـديِّين، عـضُّوا عليهـا بالنَّواجذ»[1].

وقـد نهـى ﷺ أمَّتـه عـن الالتفـات إلى المحـدثات، والاشـتغال بالاختلافات والمعوِّقات، وأمرها أن تنهل من المعين الصافي، والمورد الوافي الذي كان عليه محمد ﷺ وكان عليه صحابته الكرام ﷺ.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٦٨٣٨)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٩٣٦).

أسباب الحديث عن هذا الموضوع وأهميته

ما فتئت أمَّتُنا تعاني من تربص الباطل بها وبأبنائها ودعاتها وعلمائها ومنهاجها الأصيل، وما تنقطع المكائد والمخطَّطات التي رتَّبها أعداء الإسلام في ليل أو نهار ، حتى تبدأ غيرُها من جديد، فهم لا يَكلُّون ولا يَملُّون عن ترصُّد هذا الدين وأهله، يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون ويشغلون، ومن أسباب إفشال تلك المخططات وإفساد تلك المكائد الاستمساك بذلك المنهج الرباني، والتعلق به قلباً وعملاً، ونبذ ما قد يثني عنه، فإن الأمة متى اشتغلت ببنيات الطريق، والتفتت لغير أهدافها المنشودة، ضاعت الأهداف وتمكن الأعداء!

وبالإضافة إلى ذلك فثمة أسباب أخرى من واقعنا تقتضي الحديث في هذا الشأن ومن أهمها ما يأتي:

أولا: ما مضت الإشارةُ إليه من الهجمة الشرسة لأعداء الله جل وعلا على هذه الأمة من اليهود والنصارى، إنها هجمة في كل المجالات: الفكرية، والاقتصادية، والعسكرية، والاجتماعية؛ وهذه الهجمة قد تركت أثرها على بعض المسلمين ، حتى رأينا من كان بالأمس في مقام القدوة

يضعف اليوم أمامها! لسانُ حاله وطائفة من أمثاله ينادي بما قاله القائلون: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]! ولاينبغي والحال كذلك أن نلتفت عن مقاصدنا أو نتشاغل عن حماية الأهداف والمسلمات التي يريد العدو النيل منها.

ثانيا: حملة التشكيك التي يمارسها بعض المنتسبين للإسلام من أبناء جلدتنا من العلمانيين والليبراليين والمنافقين، وهي من أشرس الحملات، خاصة ما يحدث في بلادنا الآن، فلم تمر بلادنا بمثل ما تمرُّ به اليومَ من هجمة على المقدَّسات وعلى المسلّمات والثوابت العقدية وعلى القطعيَّات الشرعية، وللأسف فقد أحدثت تلك الهجمةُ تشكيكًا في عقول بعضهم، وأبناؤنا يؤثِّر فيهم ذلك لضعف تحصيل كثير منهم، بل قد رأينا بعض من يُنتظر منه أن يرد على هذه المواقف يؤيدها ويسوغها ويوظفها، وإلى الله المشتكى.

ثالثا: الاضطراب الذي يعيشه بعض الدعاة وبعض طلاب العلم، فقد تراجع بعضهم أمام الضغوط عما كان يقرره وينصره وينشره من الحق، فلم نعد نراهم في الساحة الدعوية، والمعتركات الفكرية، أو نسمع

لهم صوتاً، ومن أعظم أسباب ذلك: الالتفاتُ عن المقاصد، والاشتغالُ ببُنيَّات الطريق، وإيثار السلامة، وقد قيل:

حبُّ السلامةِ يُثْني هَمَّ صاحِبه
عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ
فإن جنحتَ إليه فاتخِذْ نَفَقاً
في الأرضِ أو سلَّماً في الجوِّ فاعتزلِ
ودَعْ غمارَ العُلى للمُقدمين على
ركوبِها واقتنِعْ منهُنَّ بالبَلَلِ!

رابعا: الإفراط والتفريط، والغلوُّ والجفاء اللذان ضربا في خاصرة الأمة، وأثَّرا على كثير من شبابها، وأورداهم المهالك، وانحرفا بهم عن النهج الحق، فسلك بعضهم منهج الغلو، فكفَّروا المسلمين، بل كفَّروا علماء الأمة، حتى كفَّروا علماءَ همُ الآن في قبورهم، من الأئمة وممن شهد العالم بأنهم ماتوا على السُّنَّة، والنبي ﷺ قد قال: «أنتم شهداء الله في الأرض»[1].

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٣١٢)، ومسلم (١٦٢٩).

وآخَرون باسم المدرسة العقلية أو باسم التَّنوير! ضلُّوا، وأضلُّوا، وانحرفوا وبدءوا يردِّدون أطروحاتٍ يُشككون فيها بمسلّمات ثابتة، وهم يختلفون عن الليبراليَّة وعن النوع الأول من المنافقين، فهؤلاء لا يزال بعضُهم ينتسب إلى الدعوة، لكنه يُرجع النصوص إلى عقله القاصر، ويُكيِّفها بحسب واقعه لا يعالج الواقع بمقتضاها، ويحكم فيها برؤيته العقلية للمصلحة، فيُعرض عن المقررات الشرعية ويتأولها.

خامسا: طولُ الطريق ، واستيحاشُ كثيرٍ من الصَّالحين والسَّالكين، فقد رأى بعضهم أنَّ الطريق قد طالت، والسالكون الصابرون في تناقص، فاستوحشوا ورأوا التغيير، أو استشعروا الضغوط فانعزلوا، وانخذلوا وضعفوا.

لقد دب اليأس في قلوب بعضهم، وقد علمنا أن اليأس من أشد المنكرات، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف ٨٧]، وهؤلاء اليائسون هم أقل شرًّا من المغيِّرين المبدِّلين، لكنهم أيضاً يُصبحون وبالاً على الأمة وكلًّا عليها.

إنَّ السبب في ذلك هو الاستيحاش، وطول الطريق الذي نبَّه الله جلَّ وعلا إليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد].

فلمّا طال عليهم الأمدُ قست قلوبُهم، ونسوا، وابتعدوا عن المنهج النبويِّ، فهؤلاء يجب أن نبيِّن لهم المنهاجَ المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، وأن نقول لهم: ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

سادساً: من أجل بيان الحقِّ، وبيان سبيل الانتصار، وتقرير وجوب الثبات على دين الله جلَّ وعلا، وبيانِ أهمية الصبرِ مهما طال الطريق وازدادت الغربة؛ فإنَّ هذا هو طريق الإمامة والتمكين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]، ولا تُنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين.

إنها لفتةٌ إلى منهاج شرعيٍّ كونيٍّ حياتيٍّ صالح، فكل من استقام ولم يلتفت قطع المسافة في وقت أسرع، وبلغ هدفه المنشود.

خطواتٌ أربع

قد يحارُ كثير من الناس، في كيفية بدء أعمالهم ومشاريعهم، وكيفية رسم الطريق نحو أهدافهم، وآخرون قد اعتدُّوا بأفكار أعجبتهم فاستبدُّوا بآرائهم وأدخلوا أنفسهم وغيرهم في مشاريعَ يرونها حسنةً، دون دراسة لقيمة ما اتَّخذوه من هدف أو بصلاحيَّة ما اختاروه من سبل، وفق حدود الشريعة!

والحقُّ أنَّ أمام كلِّ سائر عدةَ خطوات، من أهمها أربع يجب أن يراعيهنَّ في طريقه، وإلا تاه أوضاع جهده، ولم يصل إلى مبتغى يحمد، إنها خطوات نتَّبع فيها خطى الصَّالحين والفالحين من السَّابقين المرضيِّين الفائزين في الدُّنيا والآخرة، من أهمِّها:

أولا: على المرء أن يُحدِّد مشروعه في الحياة، وأن يجعل له هدفاً سامياً، ويضعه نُصبَ عينيه، مراعياً في ذلك قُدراته ومميزاته، فلا يدخل فيما لا يُحسن، ولا يتقحَّمُ ما يجهل، ولا يتكبَّد ما لا يُتقن.

ثانيًا: أن يدرس هذا المشروع من الناحية الشَّرعيَّة، ويُكيِّفه بالصورة التي يرى أنَّ فيها رضا الله سبحانه ، فإن كان مشروعُه دعوياً، نظر إلى

قصده، وجرَّد العمل، وأخلص فيه لله تعالى، ثم نظر في سبيل محمَّد ﷺ، ونظر في طريقه، فإن رأى نفسه متَّبعاً مقتدياً بالنبي ﷺ، حمدَ اللهَ وإلا صحَّح المسار.

ثالثًا: أن يدرس الوسائل المستعملة في قطع الطريق، وأن يختارَ أنسبها، على أن تكون مشروعةً، فإن كانت ثمة أكثر من وسيلة اختار الأنفع والأجدى من بينها، وقد يكون الأفضل بالنسبة لشخص، هو المفضول بالنسبة لآخر، وقد يكون الأجدى في سبيل، ليس هو الأجدى في السبيل الآخر، ويُراعي حاجة الفئة المستهدفة في مشروعه، وفقهَ الأولويات بالنظر لحاجة الأمة أو المجتمع، فهنالك فرق بين المجتمع العام والخاص، وبين حاجة بلد وآخر.

رابعا: أن يجدَّ في السير بعد ذلك مستقيماً إلى ذلك الهدف، في ذلك الطريق، عبرَ تلك الوسيلة، ولا يلتفت حتى يبلغ القصد! ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر].

وكلنا ينبغي أن يسلك هذه الخطوات، فكلُّ واحد منا يستطيع أن يحمل مشروعًا يخدم به هذه الأمة، وبخاصَّة في هذه الأوضاع التي يعيشها عالمنا الإسلاميُّ.

إنَّ الأمة مليئةٌ بالأخيار والصَّالحين، ولله الحمد، فهي تعيشُ أوبةً عظيمة للدين، وصحوةً مباركة بعد غفلة وسُبات، لكنَّ المشكلةَ تكمن في قلَّةِ مَن يحملون مشاريعَ تخدم الأمة، ثمَّ في القلة التي تحمل المشاريع وتُعقد عليها الآمال، هل درست مشاريعها، وحرَّرت أهدافها، وحدَّدت سبلها، وعرفت وسائلها الملائمة لها؟ ثم هل استقامت عليها بعد ذلك، ولم تلتفت للمشغلات والمغريات والمثبِّطات؟

هنا نقف مع الآيات القرآنية المبينة سيرةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لنقتبسَ منها مفاهيم تربوية ودعويَّة تتعلق بهذا المعنى العظيم، نقف معها وقفة تحليل وتدبُّر، ولا غروَ أن نقف مع الآيات تلك الوقفات، لم لا وهي من كلام ربنا الذي يهدي للَّتي هي أقوم، ويرشدنا للطريق الأسلم والأحكم، الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

معنى الالتفات وتفسير الآية

الالتفات معروف، وله أوجه وإطلاقات ذكرها اللغويون، وقد دارت المعاني اللغوية لكلمة الالتفات وفعلها وتصريفاتها حول ذات المعنى الذي سنتحدث عنه، كما بين علماء التفسير معانٍ أخرى مستفادة من تفسير الآية، تفيدنا كثيراً في فهم الدلالات والإشارات التي سوف يعرض البحث لها:

أولا: المعنى اللغوي:

قال ابن عادل: في الالتفات وجهان: أحدهما: نظر الإنسان إلى ما وراءه، والثاني: أنَّ المراد بالالتفات الانصرافُ [1].

وقال ابن منظور: لَفَتَ وجهَه عن القوم صَرَفَه والْتَفَتَ التِفاتاً، وتَلَفَّتَ إِلى الشيء والْتَفَتَ إِليه صَرَفَ وجْهَه إِليه، ولَفَتَه عن الشيء يَلْفِتُه لَفْتاً صَرفه[2].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل: ١/ ٢٨٨٢.

(٢) لسان العرب: ٢/ ٨٤.

وقال ابن سيده: لَفَتَهَ يَلْفِتُه لَفْتًا: لَواهُ على غَيْرِ جِهتَه، وقِيلَ: هو أَنْ تَرْمِيَ به إلى جانِبكَ، ولفَتَهَ عن الشَّيءِ يَلْفِتُه لَفْتاً: وفي التَّنْزيلِ: ﴿ لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾، أي: لتمنعَنا، هذا قولُ ثَعْلَبٍ ، ولفَتَه عن وَجْهِه ورَأْيِه لفْتاً: صَرَفَه(١).

فتلخص مما سبق أن للالتفات إطلاقاتٍ، منها:

- نظرُ الإنسان إلى ما خلفه.
- الانصرافُ عن الشيء، وهذا أوسعُ من الذي قبله.
- وأنه يكون باعتبار المعاني والأعيان.

ثانيا: معنى الآية:

قال القرطبي –رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾، أي: لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد، ابن عباس: لا يتخلف منكم أحد ولا يشتغل منكم أحد بما يُخلفه من مال أو متاع (٢).

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: ٩/ ٤٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٧٣.

ونبَّه الشَّوكانيُّ – رحمه الله – إلى مرمى النَّهي عن الالتفات، فقال: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره، قيل: وجهُ النَّهي عن الالتفات أن لا يرَوا عذابَ قومهم، وهولَ ما نزل بهم، فيرحموهم ويَرِقُّوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوبِ منهم بما يقع من الالتفات، فإنَّه لا بدّ للملتفت من فترةٍ في سيره[1].

ولعلَّ هذا الثَّاني هو المتجه.

ونقل الآلوسي – رحمه الله – وجهَ عدِّ التخلف التفاتاً، فقال في تفسيره: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي لا يتخلَّف كما روي عن ابن عباس، أو لا ينظر إلى ورائه كما روي عن قتادة، قال: وهذا هو المعنى المشهور الحقيق للالتفات، وأما الأول فلأنه يُقال: لَفَتُّهُ عن الأمر إذا صرفتُه عنه فالتفت أي انصرف، والتَّخلُّف انصراف عن المسير، قال تعالى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ [يونس: ٧٨] أي: تصرفنا، كذا قال الراغب[2].

---

(١) فتح القدير: ٣ / ٤٣٠.

(٢) روح المعاني للآلوسي: ٦ / ٣٠٥.

ثم قال: وسر النهي عن الالتفات بمعنى التخلف ظاهر، وأما سره إذا كان بمعنى النظر إلى وراء فهو أن يجدُّوا في السير؛ فإن من يلتفت إلى ورائه لا يخلو عن أدنى وقفة، أو أن لا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقُّوا لهم، قال: ذكر بعضُهم أن النهي وكذا الضمير للوط عليه السلام ولأهله، أي: لا يلتفت أحد منك ومن أهلك، إِلَّا امْرَأَتَكَ بالنصب وهو قراءة أكثر السبعة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع، وقد كثر الكلام في ذلك، فقال الزَّمخشريُّ: إنه سبحانه استثناها من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾[1].

فعلى قراءة النصب: لم يُسرِ بها لوط مع أهله، فالاستثناءُ تامٌّ مثبت، وحكمه النصب، والمعنى: فأسرِ بأهلك إلاّ امرأتَك لا تُسرِ بها، وعلى قراءة الرَّفع يكون الاستثناء من قوله: (أحدٌ)، والاستثناء الناقص المفرغ يجوز فيه الاتِّباع على البدل ويجوز فيه النصبُ، والمعنى: (إلاّ امرأتك، فلا تنهها عن الالتفات)، وهذا أحسنُ من الاجتراء على قراءة سبعيَّة وردِّها، بدعوى ركاكة المعنى، فليس المعنى: (إلاّ امرأتكَ فتلتفت)، بل ما قُدِّم.

---

(١) المصدر نفسه.

وبناءً على ما سبق اختلف أهلُ التفسير: هل خرجت امرأةُ لوط في جملة أهله عليه السلام أم لا؟ ولهم في هذا أبحاثٌ طِوالٌ ألَّف بعضهم فيها رسائل، والظاهر أنَّ امرأة لوط عليه السلام قد خرجت معهم، تدلُّ على ذلك قراءة الرفع، لكنها لم تلتزم الأمرَ فالتفتت، فأصابها ما أصاب قومها، فكان جزاءُ التفات قلبها عمَّا كان عليه لوط عليه السلام، أن التفتت في سيرها فلحقها ما لحق قومها.

وذكر ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره معنى ثالثاً للآية لازماً لما سبق، وهو: الأمرُ باستمرار السير دون اضطراب أو تأثُّر بالهول النَّازل، فقال: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتَ ما نزل بهم، ولا تهولنَّكم تلك الأصواتُ المزعجة، ولكن استمرُّوا ذاهبين[1].

ولا يخفى أنَّ المرء إذا رأى ما يروع فقد يُثْبِتُه هولُ ما يرى فلا يتحرك، فكان التنبيه إلى هذا المعنى الذي تتضمنه الآية حسناً جداً، ولاسيَّما إذا تقرر أن المرأة خرجت مع القوم، فأصابها العذابُ دونهم، ومثلُ هذا الحدث قد يدعو للالتفات طلباً لرعاية المصاب!

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٨٣.

وحاصلُ ما سبق يدور على جمع الهمِّ على قصد الخروج والنَّجاة، وبلوغ الغاية والمقصد، وتركيز الجهد في ذلك، كما قال ابنُ سعدي: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾؛ أي: بادروا بالخروج، ولكن همُّكم النجاةَ، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم(١).

وأما الحكمة من النَّهي عن الالتفات، فقد نقلنا قريباً عن أهل العلم طرفاً منها، وذكر ابنُ عاشور لطيفةً أخرى، فقال: «والالتفاتُ المنهيُّ عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته، كَمَا دَلّت عليه القرينة، وسببُ النَّهي عن الالتفات التَّقصِّي في تحقيق معنى الهجرةِ غضباً لحرمات الله، بحيث يَقطع التعلقَ بالوطن، ولو تعلّقَ الرؤية. وكان تعيينُ الليل للخروج، كَيْلاَ يُلاَقِيَ ممانعةً من قومه أو من زوجه فيشُقَّ عليه دفاعُهم»(٢)، هكذا ذُكر، وله وجهٌ.

---

(١) تفسير السَّعدي: ١/ ٣٨٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١١ / ٣٠٦.

الآية الكريمة وإشارات منهجيَّة

ورد ذلك الأمرُ في كتاب الله في موضعين، ففي سورة هود قال الله تعالى:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود].

وفي سورة الحجر قال تعالى:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه لوط عليه السلام، ناء بعد أن سبقه أمرُه أن يسريَ بأهله، ثم أتبع الأمر بالسّرى بالنَّهيِ ن الالتفات، ثم قال: وامضوا حيث تؤمرون! فلم يكن الانطلاقُ هياماً لى الوجه، بل ثمَّةَ وِجهةٌ وهدف منشود، مقصودٌ المسيرُ إليه: (حيث مرون)، وثمَّةَ طريقٌ يوصل إليه، وثمَّة وسائلُ وتدابير يجبُ أن يلتزمها سَّالكون لدرب السَّلامة، منصوصٌ عليها في الآيات!

وفيها كذلك دلالاتٌ وإرشادات إلى نهجِ تجريد القصد نحو الهدف، وعدم الالتفات إلى الخلف، وعدم التَّلهِّي بما يمكن أن يحيدَ بقلب المرء وجسده عن مراده ومقصده، كما قال ابنُ عاشور رحمه الله: «سببُ النَّهي عن الالتفات التَّقصي في تحقيق معنى الهجرة، غضباً لحرماتِ الله، حيث يقطعُ التعلقَ بالوطن ولو تعلّقَ الرؤية، وكان تعيين الليل للخروج كَيْلاَ يُلاَقِي ممانعةً من قومه أو من زوجه فيشُقَّ عليه دفاعهم»[1].

فعليك أيها المسلم أن تعيَ إشارة الآية: حدِّد هدفك، وحرِّره من الناحية الشرعية، واعرفِ الطريقَ، وادرسِ الوسيلةَ وخذْ بالتدابير، ثم بعد ذلك انطلق: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ ، ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾.

إن المرء لا يُمكنه أن يسيرَ في النهار أو يسري بليل؛ إلا إذا كان يعرف الطريق، أمَّا إذا لم يكن يعرفُه فإلى أين يذهب؟ ولذلك فإنَّ تحديد الهدف وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من تحرير الطريق أيضاً وتحديده.

---

(١)التحرير والتنوير: ١١ / ٣٠٦.

ولا شكَّ أنَّ حاجتنا إلى هذه اللفتات القرآنية كبيرةٌ، خاصَّةً وأن أمتنا تعيش في الآونة الأخيرة ظلمةً ووحشةً بسبب البعد عن أنوار الوحي، وحريٌّ بالعلماء وطلاب العلم أن يُنيروا الدرب وأن يُبيِّنوه ليُسلك، ولا تكفي الدعوة لهدف عامٌّ نبيلٍ لا يُدرك الناس سبيله! فمن لا يعرفُ الطريق ربَّما أضلَّ الناس، وضيَّعَ الأمة، وسلك بها غيرَ الجادَّة، وكم من مُريدٍ للحقِّ لم يبلغه، وكم من مُسيءٍ يظنُّ أنَّه محسن!

منهج الأنبياء عليهم السلام في ذلك التوجيه الرباني

١- نوح عليه السلام ومعالجتُه الطويلة قومه:

على كثرة ما لاقى نوح عليه السلام، من الجدل والتَّكذيب، والسخرية والاستهزاء، ومع بذله وُسْعه عليه السلام في سبيل دعوة قومه، مع ضعف المردود من الأتباع، كما قال تعالى واصفاً حالهُ وحرصه وعطاءه عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ ﴾ [نوح].

مع هذا الجهد المضني، الذي لم يكن يسأل عليه أجراً، بل كانت غايته: ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [نوح: ٧]، ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠ ﴾ [الشعراء]، مع كل هذا الحرص على هدايتهم، يلقى الصُّدود والإعراض والاستكبار، بل والسُّخرية: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ

وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشعراء]، يصنع السفينةَ بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود].

ولتتصوَّره، وهو يصنع السفينة، في أرضٍ صحراء لا ماءَ فيها، فيمرُّ عليه قومه الذين كذَّبوه وعادَوه وآذَوه، فيسخرون منه، ويكرِّرون سخريتهم منه في كل وقت يمرُّون عليه فيه، ويجعلونه حديثَ مجالسهم ونواديهم ، يُحاط عليه السلام بأصداء السخرية من كل مكان ، علاوةً على ما كانوا يفعلونه معه من استغشاء ثيابهم وصمِّ آذانهم، أمام نصحه ودعوته، مع كلِّ هذا لم يلتفت لذلك ومضى فيما أمره الله به، واستمرَّ على نهجه وسبيله ساعياً لهدفه، بل كان يرُدُّ عليهم ردَّ الواثق المستيقن، السَّاخر منهم ومن عنادهم وتكذيبهم وجهلهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود].

لقد كان عليه السلام مثلاً وأنموذجاً يُقتدى به في ثباته وانصرافه إلى دعوته وهدفه، غيرَ عابئ بكل ما يلقاه، وغيرَ ملتفت إلى كل المغريات أو

العقبات، لم ينل منها شيءٌ من عزيمته قيدَ أنملة، ولم تفتر قواه التي بدأ بها دعوته، إذ يتحدَّاهم، وهو سائرٌ في أمر ربه دون تردُّد: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

والدعاة إلى الله بحاجة إلى أن يتدبروا ذلك النموذج الكريم، بينما هم يتعرضون لأنواع المغريات والملهيات والعوائق والعقبات، فتتضافر عليهم قوى الشر والسوء في الأرض جميعا تبتغي النيلَ من دعوتهم والقضاءَ عليها.

٢- **إبراهيم** عليه السلام **يُبيّن المنهج:**

لما وضع إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام في واد غير ذي زرع، وليس معهما شيء يُذكر؛ إلا قليلاً من الماء، وقليلاً من الطعام، ثم إذا به يغادر بأمر ربه ويتركهم، فتلحقه هاجر قائلةً: إلى من تتركنا يا إبراهيم؟ فكان شأنه -كما في الحديث الصحيح- لا يرُدُّ عليها ولا يلتفت، (فجعل لا يلتفتُ إليها).

ولاشكَّ أنَّ إبراهيم كان رفيقاً بأهله، وكان يَحِنُّ لابنه الذي طال انتظاره لمجيئه سنين طويلة، ويحنُّ كذلك إلى زوجته الصالحة، لكنه ذهب ولم يلتفت، فقالت له وهي تلحقه وهو ماضٍ في طريقه إلى الشام: "آ اللهُ مرك بهذا؟". قال: "نعم". قالت: "إذن لا يُضيِّعنا"، فلما تعدَّاها وأصبحَ خلفَ الجبل طفقَ يدعو بتلك الدعواتِ التي تُتلى إلى يوم القيامة.

ولعلَّه عليه السلام لم يكن يُريد أن تتعلَّق امرأتُه بغير الله جلَّ وعلا، وهي قد فَتِ القضية واستوعبتها، ولذا قالت: "إذن لا يُضيِّعنا".

ففي صحيح البخاريِّ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ثم قفَّى إبراهيمُ منطلقاً، بعد أن وضعَ هاجر وإسماعيل حيث أمره الله، بعته أمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيمُ أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي

الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ وردَّدَت له ذلك مراراً، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آ الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيِّعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنيَّة حيث لا يرونه استقبلَ بوجهه البيتَ ثم دعا بهذه الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] »[1].

فانظر وتأمَّل كيف حدَّد هدفه، وعرف طريقه، فلم يلتفت حتَّى لنداءات زوجه الكريمةِ المتعجِّبة! إمعاناً منه في إنفاذ ما أمر به.

ويتجلَّى عدمُ التفات خليل الرحمن إبراهيم لشيءٍ من الدُّنيا، كذلك في ذلك الموقف العظيم حين أُمر بذبح ولده إسماعيل، فثبت قلبُه ولم يلتفت إلى أعظم زينة في الدنيا، فأظهر استعداده الكامل وتسليمه المطلق لأمر الله، وتركِ كلِّ شواغل الدنيا، ولم تُثنه تلك العقبةُ الكؤود عن المضيِّ قُدُماً إلى هدفه حين قال: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الصَّافَّات].

---

(١) صحيحُ البخاري (٣٢٠٠).

فهذا نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، بعد أن كبُر عمره، وقد انقطع عن الأهل والأقرباء، وهاجر من موطنه، وتتابعت الابتلاءاتُ في مشوار حياته، يرزُقه الله بولدٍ صالحٍ كريم، فيُشاركه سعيه، ويستعينُ به في شأنه، يأتيهِ الأمرُ من ربه بذبحه، فلا يتردد، ولا يلتفت لشيءٍ من زينة الدنيا، بل يستجيبُ ويرضى ويمتثل، ويقتدي به ابنه في اطمئنان بالغ، يقول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات].

٣- موسى عليه السلام على الطَّريق:

وفي قصة موسى عليه السلام أيضاً إشاراتٌ لهذا المنهاج الذي نتحدث عنه، فقد كان عليه السلام عالماً بهدفه، عارفاً لطريقه، مستبيناً لخطواته وسلوكه على هدى من الله سبحانه.

وقد كان عليه السلام قبل النبوَّة موفَّقاً في ذلك مُلهماً، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص ٢٢].

فقد ابتدأ موسى عليه السلام بأن سأل ربَّه سبحانه وتعالى الهدايةَ لسواء السبيل، أي وسطه فلا يحيد عن طريقه، حتى يبلغ هدفه الذي يُريده.

وقد ذكر بعضُ المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾: أنه عليه السلام عرضت له أربعُ طرقٍ فلم يدرِ أيها يسلك، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾..الآية، أو قال ذلك بعد أخذه طريقَ مدين، ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قصد الطريق إلى مدين[1]، والذي يظهر أنَّ دعاء موسى عليه السلام أوسعُ من هذا وأشمل، والمقصود أنه عليه السلام بعد أن حدَّد الهدف والغاية

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام: ٤/ ٣٦١.

(مدين)، سأل الله سبحانه الهدايةَ لسواء السبيل، فحدَّد الهدف، ولم يغفُل العنايةَ بالسبيل، مع أنه خرج مُطارداً من قبل الدَّولة، وجيشُ فرعون يتطلَّبُه بتهمة القتل، فخرج دون ترتيب عندما علم باجتماع القوم لقتله، خرج ماشياً وليس معه طعام ولا شراب، لكنَّه حدَّد غايةً، ولعلَّ من أسباب ذلك علمُه بأنَّ مُلكَ فرعون لا يبلغُها، ثم سأل الله الهدايةَ لسواء السَّبيل.

وموقفٌ آخر لنبيِّ الله موسى ينبغي أن نقفَ معه، يقولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل].

قال المفسرون: (وَلَمْ يُعَقِّبْ): لم يرجع، أو لم ينتظر، أو لم يلتفت، ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾، أي: لا يخافون في الموضع الذي يُوحى إليهم فيه، وإلا فهم أخوف الخلق لله تعالى[1].

وموسى عليه السلام من أشجع الناس وأقواهم شكيمةً، لكنه بشر ومقتضى الكمال البشريِّ الفرارُ من المخوف طبعاً، ولهذا ولّى عليه

---

(١) نفس المصدر: ٤/ ٢٩٦.

السَّلام مُدبراً، والملاحظ في تلك التولية أنه لم يلتفت في أثنائها، وهذا يُوضح لنا شيئاً من شخصيته عليه السلام أنّهُ إذا رام أمراً بدا له؛ توجَّه فيه ولم يُعرِّج على غيره.

ومثلُ هذه الشخصية متى ما اجتمع لها علمٌ صحيح، وتصوُّرٌ مُطابق، كان منها الجدُّ والمضيُّ في طريق الفلاح، دونَ مبالاةٍ بالعوائق، وإن بدت عظيمةً لا مجالَ لتجاوُزها، وتأمَّل فرعونَ وجنوده بخيلهم وركابهم، ولم يكن أمام موسى سوى البحر، ولم يكن خلفهِ سوى فرعونَ وجيشه، وحريٌّ بكل شجاع أن يخافَ في هذا الموطن، ولكنه ههنا يضرب لنا مثلاً مهماً في الالتزام بالنهج، والمضيِّ وفق الأمر، وعدم الالتفات إلى ما يخيف أو يفزع، كما لم يلتفت من قبل إلى الزينة والزخرف، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء]، فيأتي الجواب منه عليه السلام واثقاً، وهو ماض نحو بحرٍ خضمٍّ يتراءى للقوم: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]، فالذي هداني قبلَ الرسالة إلى مدين، سيهديني للنجاة من فرعون، والذي

نجاني من فرعون قبل أن يبعثني وقبل أن يُرسلني، سيُنجيني اليومَ بعد أن أمرني فأتمرتُ وأوصاني فأطعتُ.

وما أقربَ الفرجَ ممن كان واثقاً بربه، مؤتمراً بأمره، محسناً الظَّنَّ به، وتأمَّل: جاءت الفاءُ المشعرة بالفوريَّة بعد قوله: (كلا)، قال تعالى:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشُّعراء].

٤- محمَّد ﷺ يوضح السبيل:

سبق أن أكَّدنا على أنَّ كلَّ عاملٍ لله سبحانه يجبُ أن يضعَ لنفسه مشروعاً يسعى إليه ومقصداً يسير نحوه، كما عليه أن يستبينَ الوسيلةَ الصالحة له، ثم يسير نحوه ولا يلتفتُ، والنَّبيُّ ﷺ قد أرشدنا إلى هذه المعاني في مواطن من سيرته، ووجهُ هذا التوجيه في سنته النبوية الشريفة كما سوف يأتي بيانه:

أولاً: التشجيع نحو الأدوار والتخصصات والمشاريع:

كان النبي ﷺ في توجيهه لصحابته يقرر أن منهم أصحابَ خصائص ومميزات، وكان يُثني بذلك ويحمد عليه، فتجده ﷺ يقول: «أرحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمرِ الله عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبَيٌّ، ولكلِّ أمَّة أمينٌ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1].

والناظر في التراجم والطبقات يجد العلماء والمترجمين لصحابة النبي ﷺ يقولون: أنس خادم رسول الله ﷺ، وابن عباس تَرْجُمان القرآن، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، حتى حفظ أبناءُ الإسلام في شتَّى بقاع الأرض مهامَّ بعضهم

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٣٧٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٢٤).

فلا تكاد تَذكر اسمَ بلال بن رباح ﷺ في أيَّة بقعةٍ في أرض الإسلام، إلا ويُقال لك: بلال مؤذن الرسول، وهكذا، وأنس خادم رسول الله، وأبو عبيدة أمين الأمة..، وفي هذا إشارة إلى مسلكٍ في التربية على التخصص، فينشأ الناشئ المؤهَّل وله وظيفة، وعليه مهمَّة، ونُصبَ عينيه هدفٌ، من خلاله يخدم الأمة وينفعُ أهلَ الإسلام.

ثانياً: عدمُ احتقاره لعمل خيرٍ مهما كان صغيراً:

ولم يحتقر ﷺ من أعمال البر شيئاً مهما كان في أعين الناس صغيراً! ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَأَلَ عَنْهَا فَقَالُوا: مَاتَت ، قَالَ: (**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي**)، قَالَ فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا ، فَقَالَ: (**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**)، فَدَلُّوهُ "فَصَلَّى عَلَيْهَا" ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[1].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٤٨) ، ومسلم (١٦٣٩).

وهنا نرى كيف رفع النبي ﷺ من مهمة كلِّ إنسان، مهما رآها بعضهم قليلة، لكنّ النبي ﷺ عظَّم من شأن صاحبتها، حتى إنّه قام للصَّلاة عليها في البقيع، وكانت الصلاة عليها سبباً في دعائه ﷺ لها ولكلِّ أهل القبور.

والمقصودُ: لا تستصغرنَّ من البر شيئاً، ولا تستكبرنَّ عنه وترى نفسك فوقه! غير أنَّه إن تزاحمت الأعمال، فقدِّم الأهمَّ والأنفع.

ثالثاً: حادثة الهجرة وتطبيقُ المنهج كاملاً:

لما هاجر الصحابةُ إلى الحبشة لم يُهاجر ﷺ معهم، وكان ينتظر أمر ربه، وعندما أمره الله بالهجرة إلى المدينة، حدَّد الوجهة، وأخبر ﷺ أبا بكر ﷺ بها.

ثم بعد ذلك حدَّد الوسيلة، فأتى أبو بكر براحلتين مناسبتين، ثم حدد من يدله على الطريق، وهو عبد الله بن أريقط، فاستأجره رغم أنه كان كافراً، لكنه كان ماهراً خريتاً أميناً، من أجل بيان الطريق وسلامته، فهما إن قُدِّر أنهما كانا يعرفان طريقاً للمدينة، فإن طرقات المدينة كثيرةٌ ومختلفة، وكثيرٌ من الصحابة يعرفونها كذلك، وهم يُريدون طرقاً أخرى غيرَ

مأهولةٍ، يُريدونها كي لا يصلَ إليهم أو يُدركَهم الطلبُ من أهل مكة، وكان ابنُ أُريقط خبيراً بتلك الدروب، فسلك بهم طريقَ الساحل.

وفي هذا تطبيقٌ عمليٌّ يُبيِّنه لنا النبيُّ ﷺ: فهو ﷺ قد حدد هدفه، واختار من يُرشده الطريق، وبذل أسباب السلامة الممكنة فمكث في غار ثور ثلاثة أيام مختفياً[1]، أخذاً بالأسباب وتعليماً للأمة.

ولما رصدت قريشُ مكافأتها، وأعلنت عن أكبر مطلوبين لها في نواديها، وخصَّصت الجوائزَ الضخمة لمن يدلُّ عليهما، فبلغ ذلك سراقةَ، كما يَروي سراقةُ بعد أن أسلم رضي الله تعالى عنه، يقول: "جاءتنا رسلُ كفار قريش، يجعلونَ في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديةَ كل واحد منهما، لمن قتلهما أو أسرهما، قال: فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منها حتى قام علينا، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفا أسودة بالساحل لا أراها إلا محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت: إنَّهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بنا، ثمَّ لبثت في المجلس ساعة، ثم قمتُ فدخلت بيتي فأمرتُ جاريتي أن تُخرجَ

---

(١)صحيح البخاريُّ (٢١٦٥).

لي فرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، وأخذتُ رُمحي فخرجتُ به من ظهر البيت، فخططتُ به الأرض، فأخفضتُ عاليةَ الرمح حتى أتيتُ فرسي فركبتها، ورفعتُها تقرب بي حتى إذا رأيتُ أسودتهم، فلما دنوتُ من حيث يسمعهم الصوت، عثر بي فرسي، فخررتُ عنها فأهويتُ بيدي إلى كنانتي، فاستخرجت الأزلام، فاستقسمتُ بها، فخرج الذي أكره، فعصيتُ الأزلام، وركبتُ فرسي، ورفعتُها تقرب بي، حتى إذا سمعتُ قراءةَ رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكرٍ يُكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين فخررتُ عنها، فزجرتُها فَنهَضَتْ، ولم تكد تُخرج يديها، فلما استوت قائمةً، إذا عثانُ ساطع في السماء"، قال معمر: قلت لأبي عمرو بن العلاء: ما العثان؟ فسكت ساعة ثم قال: هو الدُّخان من غير نار[1].

فلم يكن النبيُّ ﷺ يلتفت في طريق هجرته، كما نصَّ على ذلك سراقة، بل كان ناصباً عينيه على مراده من الطريق، عاقداً عزمه على المضيِّ قُدماً مهما حدث من أحداث، فتأمَّل مع قوة الطلب خلفه لم يلتفت واستمرَّ

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٧٢٨٠).

جاداً في طريقه، وإنما كان التفاتُ أبي بكر ههنا خوفاً على النبي ﷺ أن يُصيبه مكروه.

لقد أخذ النبيُّ ﷺ بكلِّ الأسباب: حدد الهدف، وحدد وجهته، وأخذ بكل الوسائل، ومضى إلى الجنوب ثلاثة أيام، واختار دليلاً خبيراً، ولم يبق إلاَّ الاعتماد على الله جلَّ وعلا، كما قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وكما قال ﷺ لأبي بكر: «**يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما**»(١).

وفي الصحيحين يحكي أبو بكر ﷺ الموقف فيقول:" فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ -قَالَ- وَنَحْنُ فِى جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ(٢) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ أُتِينَا، فَقَالَ: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا}. فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهَّ ﷺ فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا أُرَى فَقَالَ: إِنِي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي فَاللهَّ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا اللهَّ

---

(١) متّفق عليه: البخاري (٣٤٧٤)، مسلم (٤٤٩٣).

(٢) الموضع الصَّلب الغليظ منها، انظر: (فتح الباري: ٦/ ٦٢٢، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٨/ ١٩٠.

فَنَجَا، فَرَجَعَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَا هُنَا ، فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ - قَالَ - وَوَفَى لَنَا"(١).

رابعاً: يوم بني قُريظة ودفعه أصحابهُ نحو المقصد:

لما أرسل النبيُّ ﷺ لليهود بعد خيانتهم ونقضهم للعهود، أمر أصحابه رضوانُ الله عليهم بالركوبِ إلى بني قريظة: فعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ: «**لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» ، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ(٢).

فأمرهم إذن أن يُسرعوا ، ولا ينشغلوا بشيءٍ، ولا يلتفتوا ، ويمضوا حيث يؤمرون ، فلا يُصلُّون العصر إلا في بني قريظة، والوقت ضيق، حتى اختلفوا في صلاة العصر هل يُصلُّونها في وقتها أو لا يصلُّونها إلا بعد بلوغهم بني قريظة، فكان عاملُ الوقت والإسراعُ في التجهيز والخروجِ

---

(١) متّفق عليه: البخاري (٣٤٣٩) ، مسلم (٥٤٤٨).

(٢) متّفق عليه: البخاري (٩١٨)، (٣٤٠٤).

سبباً عظيماً لتزعزُعِ نفسيَّةِ يهود بني قُريظة الذين ظنُّوا أنَّ المسلمين في لحظة إنهاكٍ للقوى بعد أكثر من شهرٍ عصيب تزلزل فيه المسلمون من أحداث حصار جيوش الأحزاب، ولعلَّ اليهودَ قد ظنُّوا أن المسلمين سيعودون إلى بيوتهم ويُؤثرون الإخلاد إلى الرَّاحة والدَّعة، وربما ينسَون فعلَ اليهود، أو لا يجرُؤون على قتالهم، وأيّاً ما كان فقد ظنُّوا أنهم في مأمن من سوء غدرهم، فكان من الحسن الإسراع دونما إبطاء لمباغتة القوم، ودونما التفاتٍ إلى المشغلات ودواعي التأخير.

خامسا: يومُ خيبر.. (امشِ ولا تلتفتْ حتى يفتحَ اللهُ عليك):

أشار صلى الله عليه وسلم إلى أهميةِ جمع العزم على القيام بالأمر دون التفاتٍ في خبر غزوة خيبر، فعن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال يومَ خيبر: « **لأُعطِينَّ هذه الرايةَ رجلاً يحبُّ الله ورسوله، يفتح اللهُ على يديه** » ، قال عمر بن الخطاب: "ما أحببتُ الإمارةَ إلا يومئذٍ"، قال: "فتساورتُ لها، رجاءَ أن أُدعى لها" ، قال: فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه إيَّاها، وقال: « **اِمشِ ولا تلتفتْ حتى يفتحَ اللهُ عليك** » ، قال: "فسار عليٌّ شيئاً ثم وقف، ولم يلتفت، فصرخ: يا رسولَ الله، على ماذا أقاتلُ الناس؟"، قال: « **قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله،**

فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله »[١].

فعليٌّ ﷺ كان يُمكن أن يرجعَ لما أراد أن يستفسر، ولكنه لم يَرجع، ولم يلتفت من شدة تقيُّده بالأمر وإقباله عليه، كما في نصِّ الحديث، "فصرخ وهو لا يلتفت"، التزامًا بقول النبي ﷺ: « **ولا تلتفت** ».

وقريبٌ من هذا أيضا خبرُ سريَّة عبد الله بن جحش، وفيه أنَّ رسول الله ﷺ كتب لأمير السريَّة كتاباً، وقال: « **لا تقرؤه حتى تبلغَ مكان كذا وكذا** »، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ[٢]، والشاهدُ فيها التزامه بالأمر، فلم يلتفت عما أُمر به حتى أنفذه.

سادساً: النهيُ عن الالتفات في العبادة:

ولعلَّ منه كذلك ما صحَّ عنه ﷺ من النهي عن الالتفات في الصلاة، فقد صحَّ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٨٠٤) ومسلم (٤٥٢٧،).

(٢) صحيح البخاري (١٨٢٠١).

الالتفات في الصلاة؟ فقال: «هو اختلاسٌ يختلسه الشيطانُ من صلاةِ العبد»(١).

فانظر كيف نهى النَّبيُّ ﷺ عن الالتفات، وجعل الالتفات نقصاً في العمل، بل هو من الشيطان، بل تأمَّل كيف جعل في الشريعة دليلاً على الخروج من الصلاة عند التسليم! إذ الصلاة تحريمُها التكبيرُ وتحليلها التسليم، كما في الحديث عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِفْتَاحُ الصَّلاَةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٠).

(٢) مسند الإمام أحمد (٩٨٦)، وصححه الألباني في الإرواء (٣٠١)، وصفة الصلاة: ص ٦٦.

توجيهات قرآنيَّة تؤكِّد المعنى

تكرَّر في كتاب الله الأمرُ بالسير في الطريق قُدُماً بجدٍّ نحو القصد، دون الالتفاتِ أو التَّشاغل ببُنَيَّاتِه، بل مع الإعراض عن العوارض التي تقطع دون الطريق أو تؤخِّر فيه، أيّاً كانت تلك العقبات، ومن الآيات التي يمكن أن تُلحظ فيها تلك الدلالات:

١- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام].

٢- وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام].

٣- وقوله سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر].

٤- وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف].

٥- وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم].

إنَّ الآيات الكريمة السَّابقة كلَّها لتُبيِّن أنَّ المؤمنَ عليه أن يسيرَ نحو مراده الشريف، ويُعرضَ عن كلِّ ما يعوقه في طريقه، وأنَّه عليه أن يمشيَ ولا يتلفت، بل تُشير إلى أنَّ المؤمن لن يستطيعَ أن يمشي إلاّ إذا أقبل على مقصودِه وترك الالتفاتَ عنه يَمنة ويَسرة!

إنَّ بعض الدُّعاة وطلاب العلم لّما لم يلتزموا بهذا المنهج، أصبحَ أعداؤهم يُحدِّدون لهم مسيرتهم، يُوقفونهم متى شاؤوا ، ويُعرقلون طريقهم متى شاؤوا، ويصرفونهم إلى ما شاؤوا، أما عباد الرحمن الذين أثنى الله عليهم فمن صفتهم، أثناء سيرهم، ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]، قيل في تفسيرها: مرُّوا كراماً لا ينظرون إليه، والمعنى أجمعُ كما لا يخفى[1].

---

(١) انظر الدر المنثور: ١١/ ٢٢٥، والمعنى الجامع في تفسير الطبري: ١٧/ ٥٢٥- ٥٢٦.

التفاتُ الوجه والتفاتُ القلب

إنَّ الالتفاتَ الذي نتحدثُ عنه، والذي أشارت إليه الآياتُ والأخبار التي مرَّت معنا، ليس هو التفاتَ الوجه فحسبُ، بل لعلَّ الالتفاتَ الأكثر تأثيراً هو التفاتُ القلب، فهو الذي يدفعُ لالتفات المرء بأفعاله وأقواله، بل بمقدار التفاتِ الإنسان يكون التفاتُ قلبه، وقد ذكر العلماءُ كما مرّ أنَّ معنى الالتفات ليس مقصوراً على صرف الوجه.

وقد ذكرنا أنَّ الالتفات هو الانصرافُ، وقد يكون ذلك الانصراف عن الشيء الموجود قُبالتَك، ويُسمَّى عندها: الانصراف عن المقابل، وقد يكون التفاتاً معنوياً نفسياً مردُّه إلى الهوى والرغبة.

وإذا تأملتَ في خبر لوط عليه السلام وعلمتَ أنه سيصحب من آمن معه من أهل بيته، وسيُخرِجُهم من ديارهم وأموالهم، وما أَلِفوه من مقامٍ ومن حياة؛ فكان من المناسب أن يأتيَ التوجيهُ بالنَّهي عن الالتفاتِ ليشمل ذلك النهيَ عن الالتفات القلبيِّ إلى ما تركوه.

وإبراهيم عليه السلام انصرف بقلبه عن المشركين، وتعلق بخالقه سبحانه، فعصمه الله وثبته وسدده، رغم ما تعرض له من صنوف البلاء من أبيه وقومه؛ حملات تشكيك ومحاورات، وتهديد بالقتل والرجم، وفي النهاية حاولوا قتله والتخلص منه، وصدر الحكم المذكور في قوله: ﴿ فَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت].

وتأمَّل ههنا في هذا الموقف العظيم أيضاً، كيف ضرب إبراهيمُ عليه السلام أروع الأمثال في عدم التفات القلب عن رجاء ربه ومولاه سبحانه وتعالى.

فقد ورد في بعض الآثار أنه قبل أن يقع في النار أتاه جبريل عليه السلام بعد أن رموه بالمنجنيق، وكانوا قد أوقدوا ناراً عظيمة، جلسوا مدةً طويلة يُعدُّون لها، حتى إنَّ المرأة إذا حملت نذرت إن وضعت لَتأتي بحطبٍ لإحراق إبراهيم، فورد أنَّ جبريل عليه السلام جاءه وهو مُعلَّق بين السماء والأرض، فقال له: ألك حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليك فلا [1]، وفي صحيح البخاري أنه قال: "حسبي الله ونعم الوكيل"[2]، فانظر وتأمل من لم يلتفت قلبه في ذلك المقام لغير ربه، فهل يعجب من ثباته في غيره، بل لعجبُ من التفات مثلِ هذا القلب وتشاغلِهِ بغير بُغيته وقصده!

هذا مع أنَّ إبراهيم عليه السلام لو طلب من جبريل في تلك الحال، لطلب مراً يجوز له طلبه، لكنَّه أخذ بالمقام الأعلى، وعندئذٍ جاءه النصر من الله

---

١) شعب الإيمان للبيهقي: ج١٢ (١٠٤٥)، وحلية الأولياء (٣٩).

٢) صحيح البخاري (٤٢٩٧).

سبحانه وأعلاه الله على أعدائه ونصره ، ﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات]، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء].

قال بعضُ العلماء: لولا أنَّ الله سبحانه قال: ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾؛ لتجمَّد مِن بردها، لكن قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ بَرْدًا ﴾ لكي تبرُد النار، و﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ حتى لا يتجمَّد.

وذكر العلماء لطيفةً أخرى، وهي أنَّ أمر الله لم يكن للريح أن تُطفئ النار، ولم يأمر المطر أن يُطفئها، بل جاء الأمر الإلهيُّ مباشرةً إلى النار: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ ﴾، قالوا: حتى لا تكون لمخلوق منّةٌ على إبراهيم عليه السلام، لا ريحٌ ولا مطرٌ ولا غيرُهما، جزاءَ تعلُّق قلبه بالله وحده، وعدم التفاته إلى غيره.

وكذلك كان شأنُه عليه السلام لما ابتلاه ربُّه بالأمر بذبح ابنه، أقبل على الأمر ولم يتلكأ أو ينظر سبيلَ نجاة! قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا

وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصَّافات].

فلما انقادا واستسلما لأمر الله وفوَّضا أمرهما إلى الله ، ناداه الله سبحانه: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فانظروا لهذا الابتلاء العظيم، كما قال ربنا: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات]، وانظروا كيف لم يؤثِّر ذلك على استقامة إبراهيم عليه السلام، ومن تأمَّل سيرته عليه السلام مع أبيه وقومه وزوجه وولده يرى ثباته عليه السلام وإقدامه العجيب على إنفاذ أمر الله، دون التفاتٍ لغير الله أو تعلُّق به، ومما أثنى عليه اللهُ تعالى به قوله: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات].

من أسباب الالتفات

إنَّ أسبابَ الالتفات كثيرة ، ولا بدَّ للسَّائر أن يتبيَّنها ليعرفَ من أين يأتيه عدوُّه، وإلاّ فقد يقطعُ عليه الطريق، بل قد يحمِلُه على النكوص عنه.

ومن أعظم أسباب الالتفات: **الهوى**، فهو مُضيِّع للإنسان، ومُذهبٌ بلُبِّه، وقد يكونُ سبباً في سوء خاتمته.

وكذلك: **الجهلُ** من مُسبِّبات الالتفات، فالجاهلُ قد لا يُدرك أهميَّة الجدِّ في السير، وقد يغفُل عن مقاصد السير فيضعفُ أمام العوائق، بل قد لا يُبصر الهدفَ فيسير رأساً في غير سبيلِ سلامة.

ومن أسباب الالتفات كذلك: **الشيطان ووسواسه**، فهو قد نذر نفسه لغواية بني آدم ولفتِهم عن سبيل الهدى.

فهذه ثلاثةُ مسبِّبات رئيسة، إذا سلم منها المرءُ سلم من أسباب شر عظيمة، غير أنَّ ثمة غيرَها، ومن أهمها:

أولا : ضعف العزم:

فالالتفاتُ دليلٌ على ضعف العزم أو فساده بالكلية ، وهذه آفةٌ منتشرة، فترى كثيراً من الأخيار يبدؤون المشاريع ، ثم يتلكؤون فيها، ثم ينسحبون منها، وقد ينتقلون إلى غيرها، وعلى نفس المنوال يلتفتون عنها،

ثم ينصرفون، وهكذا حتى تمضي الأعمارُ، والواجبُ أن يجدَّ المرءُ ويعزمَ ثم يستعينَ بالله عزَّ وجلَّ ويمضي، ولذلك جاء الأمرُ ليحيى عليه السلام ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم]، ولما ضعُف قومُ موسى عليه السلام عن أخذ التوراة، ووهنت عزائمُهم كان التحذيرُ شديداً، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف].

ثانيا: التَّشتُّت وعدم وضوح الهدف أو الوسيلة:

إنَّ غياب الهدف من أهمِّ أسباب التخبُّط في السير، فمن يسيرُ هائماً على وجهه على غير هُدى وإلى غير جهةٍ يعرفُها، فمن البدهيِّ أن ينقطعَ وأن يُغيِّرَ السبيلَ وأن يلتفتَ عنه لأدنى عارض، وكلَّما ظهر له شيءٌ يعجبه؛ أغراه ولمع في عينيه وانساق نحوه، ثم ما يلبثُ أن يلتفتَ عنه، وهكذا.

وكذلك إذا حدَّد المرء هدفه، لكنَّه لم يحدد الوسيلة، فلن يستطيع بلوغه، ولن تكون له يدٌ بالشُّروع فيه، وإن شرع فسرعانَ ما ينقطع.

أما من حرَّر هدفه، وحدَّد وسيلته المناسبةَ، فلن يبالي بالعقباتِ لأنه متحسِّبٌ لها سلفاً، ولهذا لمّا قيل لأحد الدُّعاة - وقد مضى من عمره ما

مضى وكان صامداً في طريقه وثابتاً في مسيره- قيل له: أنتَ ابتُليت، وسُجِنت، وفُصِلت، ألم يؤثِّر هذا في طريقك؟

قال: لولا هذه الابتلاءاتُ والامتحاناتُ؛ لشككنا في طريقنا، وهذا صحيحٌ ومعنىً عميق، قال الله سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت]، ونحوُ هذا منقولٌ عن بعض السلف، وقد ذكر ابنُ كثير: أنَّ أبا الحسن الحُسينيَّ الملقب بالمرتضى ذي الشَّرفين، كانت له أموالٌ جزيلةٌ وأملاك متَّسعة ونعمةٌ وافرة، يُقال: إنَّه ملكَ أربعينَ قريةً! وكان كثيرَ الصدقةِ والبرِّ والصِّلة للعلماء والفقراء، وبلغت زكاةُ ماله الصَّامت عشرةَ آلاف دينارٍ غيرَ زكاة العشور، وكان له بستانٌ ليس لمِلكٍ مثلُه، فطلبه منه ملكُ ما وراءَ النَّهر -واسمُه الخضرُ بن إبراهيم- عاريةً ليتنزَّه فيه فأبى عليه، وقال: أُعيرُه إيَّاه ليشربَ فيه الخمرَ بعد ما كان مأوى أهلِ العلم والحديث والدين؟ فأعرضَ عنه وحقد عليه، ثم استدعاهُ إليه ليستشيره في بعض الأمور على العادة، فلما حضرَ عنده قبض عليه وسجنه في قلعته واستحوذ على جميع أملاكه وحواصله وأمواله، فكان يقول: ما تحقَّقت صحةَ نسبي إلا بهذه المصادرة، فإنِّي

رُبِّيت في النعيم، فكنت أقول: إنَّ مثلي لا بدَّ أن يُبتلى، ثم منعوه الطعامَ والشرابَ حتى مات -رحمه الله- في القلعة، فأخرجوه ودفنوه هناك، أكرم الله مثواه[1]، واللهُ موعده مع من ظلمه!

وبعضُ الناس يتصوَّرون سهولةَ الطريق، ويُهيِّئون أنفسهم لطريقٍ سهلٍ ميسور، لا مشكلاتٌ فيه ولا عقباتٌ ولا ابتلاءاتٌ ولا امتحانات، ولذلك يتوقَّفون وينقطعون ويتحوَّلون، بعد أن يقطعوا فيه شوطاً وتتالى العقبات.

ثالثا: النَّفس:

فنفسُ الإنسان من أكبر مسببات الالتفات، فهي دوماً تميل نحو الإمتاع والراحة والدَّعة، تميل نحو المال والولد، تميل نحو المهادنة والاستكانة، وتنفر من الجهد والتعب والعرق، وترفض التضحية والبذل والفداء.

وقد سمعتُ بعضَ أهل العلم الفضلاء يقولُ أكثرَ من مرَّةٍ ويكرِّر: إنَّ أكبر عقبةٍ في طريقي هي نفسي الَّتي بين جنبيَّ، وإني إن تغلبتُ عليها

---

(١) البداية والنهاية: ١٦/ ١٠٩-١١٠، حوادث سنة ٤٨٠هـ.

فسوف أتغلبُ على غيرها، واقرؤوا قولَ الله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة] ، فما قال تعالى ، طوَّع له الشيطان، بل طوَّعت له نفسُه، ويعقوبُ عليه السلام لم يقل سوَّل لكم الشيطانُ، بل قال: ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ [يوسف: ١٨]، بل السَّامريُّ يفسر سببَ ضلاله وإضلاله بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه].

إنَّ هذه حقيقةٌ مهمة إن لم ندركها لن نستطيع أن نسري، بل سيكثُر الوقوفُ، وسيتتابعُ الالتفاتُ، فهوى النفس يدعو للدَّعَةِ، ويُزيِّن الشُّبهة، ويُشكِّك ويُخوِّف، فإنَّ التخويفَ يبدأ من داخل النفس، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر]، وبعضُ الناس لا يُدرك هذه الحقيقةَ، ومتى أغفل نفسه وترك حسابها ومراقبتها تراجعَ وكان نكوصُه: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات].

رابعا: الضُّغوط السِّياسيَّة:

تُمثِّل الضغوط السياسية نوعاً مهماً من الضغوط العصرية التي يمكن أن يتعرض لها الدعاة وطلبة العلم، سواء أكانت ضغوطاً حقيقيةً فعليةً، أو كانت متوهَّمةً مُتخيَّلة لما يرونه حولهم من ضغوطٍ مختلفة تمارس على شتى المستويات.

ولنتدبَّر هذا الموقف الذي حدث مع الإمام عبد الله بن المبارك وصاحبه إسماعيل بن عُلَيَّة، وكان ابنُ المبارك ينفق على عددٍ من أصحابه العلماء، ويقولُ: لولا هؤلاء لما تاجرت[1]، فبلغه يوماً أنَّ واحدًا منهم بدأ يتقرَّب للسلاطين، وهو إسماعيلُ بن عُليَّة رحمه الله، بدأ يتقرَّب إلى هارون الرشيد رحمه الله، وأنه قد عَرض عليه القضاءَ فقبل، فما كان من ابنِ المبارك إلا أن قطعَ عنه ما كان يُرسله به إليه من الصلة، فركب ابنُ عُليَّة إليه لَمَّا علم بقدومه، فتنكَّس على رأسه، فلم يرفع به عبدُ الله رأساً ولم يُكلِّمه فانصرف، ثم كتب له يَستخبره عن سبب جفائه له، فلمَّا وردت الرقعةُ على عبدالله بن المبارك دعا بالدَّواة والقرطاس، وقال: يأبى هذا الرجلُ إلاّ أن نقشرَ له العصا! ثم كتب إليه:

---

(١) انظر تاريخ بغداد: ٦/ ٢٣٥، وسير أعلام النبلاء: ١٥/ ٤٠٣.

بسم الله الرحمن الرحيم،

يـا جاعـلَ العلـمِ لـهُ بازيّـاً ... يَـصطادُ أمـوالَ المـساكيـن
احتَلْـتَ للـدُّنيا ولذّاتِهـا ... بحِيلـةٍ تَـذهبُ بالدِّيـن
فَـصِرْتَ مجنونـاً بهـا بعدَمَـا ... كُنـتَ دواءً للمَجَـانين
أيـنَ رواياتُـك في سردهـا ... عـن ابـنِ عـونٍ وابـنِ سـيرين
أيـنَ رواياتُـك فـيما مـضَى ... في تـرك أبـوابِ الـسَّلاطينِ
إن قلـتَ أُكْرِهـتُ فـماذا ... كـذا زلَّ حمـارُ العلـمِ في الطِّـين

فدخل ابن عُليَّة على هارون فقال: أعفِني، فأعفاه هارونُ، فرجع ابـنُ المبارك لصلته(١).

وكان ابنُ المبارك رحمه الله شديداً في هذا الباب، وكان يقول:

رأيـتُ الـذنوبَ تُميـتُ القلـوبَ ... وقـد يُـورثُ الـذلَّ إدمانُهـا
وتـركُ الـذنوبِ حيـاةُ القلـوبِ ... وخيـرٌ لنفـسكَ عـصيانُها
وهـل بـدَّلَ الديـنَ إلا الخُلـوفُ ... وأحبـارُ سـوءٍ ورُهبانُهـا
وبـاعُوا النُّفـوسَ فلـم يربَحُـوا ... ولَم تغـلُ فِي البيـع أثمانُهـا

---

(١) انظر تاريخ بغداد السَّابق.

ولستُ أقصدُ بذلك الدعوةَ إلى ترك تولي المسؤوليات، أو عدمِ الدخول على السلاطينِ من أجل مناصحتهم، وقولِ كلمة الحقِّ ودلالتهم على الطريق، فهذا واجبٌ شرعيٌّ لمن قدر عليه وأمِنَ على نفسه، وترجَّحت عنده مصلحتُه، لكنِّي أتحدَّثُ عمَّن لم يأمن ذلك، فكان مآلُه أن استخدم قربه لمصلحة نفسه أولاً، ثم خدعته إذ سوَّغت له ما هو فيه بما لا حقيقةَ له.

أمَّا إن بقيَ الرجلُ على صلةٍ مع ولاة الأمر ينصحُهم ويُبيِّن لهم الحقَّ، وبخاصَّةٍ إذا كان يُسمعُ منه، كما كان يُسمع من علمائنا كالشَّيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن عثيمين، وغيرهم من العلماء، فهذا قد تكون الصِّلةُ في حقه واجبةً.

خامساً: الضُّغوط الجماهيريَّة:

وأقصد بها موافقةَ الجماهير والانسياقَ خلفَ أهوائهم، وهذا النوع من الضَّغط أشدُّ من غيره، فقد يُفتن به الداعية وهو لا يدري! وللجماهير سطوتها، ولنفوسهم جموحُها، ومن تأثَّر بمدحهم وقدحهم في ما يأتي ويذر ولو خالف بذلك مقرَّراً شرعياً؛ فسوف يقع في العنت، وما أكثرَ المعنتين، وإن كانوا فضلاء صالحين! وإذا كان الله

تعالى يقول لخير جيلٍ ديانةً وعلماً: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾[الحجرات]، فإذا كانت طاعةُ النبي ﷺ لأصحابه في كثيرٍ من الأمر قد أوقعتهم في شيءٍ من العنت والمشقة؛ فكيف لو يُطاع الناس اليوم!

وأذكر مقولةً لبعض أهل العلم، ضجَّ عليه الجمهورُ في مسألة، فقال لهم: اهدؤوا، أنتم لا ترضَون أن يكونَ العالمُ بوقاً للسلطان! وأنا لا أرضى أن أكون بُوقاً للجماهير! أخذت تلك المقولةَ وقد أعجبتني فعرضتُها على شيخنا ابن عثيمين رحمه الله فقال: صدقَ، ثم قال ابنُ عثيمين رحمه الله: العلماء ثلاثة: عالم دولة، (أي جاهزٌ لإنفاذ كلِّ ما تريده منه الدولة)، وعالمُ أمة (وهو المنفذ لما يُريده منه الجمهور)، وعالم ملَّة، وهو العالم الحقيقيُّ؛ (يقول الحقَّ سواء وافق رأي الدولة أو خالف رأي الدولة، وسواء وافق رأي الجماهير أو عارض رأي الجماهير) [1].

---

(١) كان هذا عام ١٤١٢ بمكة في بيت الأخ سمير المالكي بحي الزاهر، وما بين الأقواس إيضاح مني، وقد وجدت هذا القول بعد ذلك مدوناً في الشرح الممتع، انظر الشرح الممتع ٩/ ٤٥٧.

وبالفعل هناك دعاة وطلبة علم قد زلُّوا في هذا الباب، وقد سمعتُ من يُشبِّهُهم بمن يعدُّون برنامجاً إذاعياً خاصَّاً بما يطلبه المستمعون! ومثل هذا غافل عن وظيفة الدعوة ومقصودها؛ الذي هو دعوة الأمة إلى التزام مقرَّرات الشريعة، وتعبيد الخليقة لربها، لا البحث عن مسوغات لما هي فيه، من رخص بدون دليلٍ من أجل أن يكبر الدعاة في عيونهم، أو يذاع وصفُهم بالفقه بين الناس! بل المطلوبُ من العلماء أن يدأبوا على رفع منسوب التَّديُّن في نفوس المدعوِّين، والصعود بهم شيئاً فشيئاً في مدارج العبودية لرب البريَّة.

إنَّ الواقعين في حبال الجماهير ليزيدون الواقع المرير مرارةً؛ لدأبهم على إرضاء الناس بفتاواهم وأقوالهم، تجد أحدهم يبحث عن الشبهات ويتتبَّع الرخص في الأقوال والفتاوى، ويشجعه رفعُ الناس له! وقد خرجت فئةٌ من هؤلاء وصدرت منهم فتاوى لا تؤيِّدها ضمائرُهم! وهؤلاء على خطر أعظم من النوع الأول الخاضعِ للضُّغوط السياسية.

فالنوع الأول، ربما كانت عنده شبهةُ مراعاة مصالح سياسية، أو شبهة إكراه، وبكل حال فانحرافه مع جهة وحيدة، أما الخضوع للجماهير فليس

له ضابط أبداً، مع تباين أهواء الناس ورغباتهم! كما أنهُ دليل ضعف في الإخلاص، وعمل من أجل الرياء والسمعة، ويا لخسارةِ ذلك الداعية الذي يصعد المنبر أو يجلس للدرس والمحاضرة، وهو يبحث عما يريده الناس ويعجبهم، من أجل أن يشتهر بينهم وينال إعجابهم، ومثل هذا على خطرٍ حتى وإن قال حقاً ما لم يُصلح نيته، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، كما في حديث أبي هريرة عند مسلم[1].

وضغوطُ الجماهير ليست في باب الرُّخص والتفريط فقط، بل تكون أيضاً في باب الغلوِّ والإفراط، فبعض الدعاة قد يسكتون عن بعض الغلاة مجاملةً لهم، حتى لا يخسر مكانته عندهم، بل هناك من يساير أصحاب منهج الغلو بأقواله أو فتاواه ليحتل مكانة عندهم، أو لخوفه من نقدهم له، وكلا الأمرين ذميم.

إنَّ العالم الربانيَّ هو عالم الملة، يقول الحق، ولا شيء غير الحق مهما كانت الضغوط، ملتزماً أمر الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]، لا يطلب بعلمه لا مالاً ولا جاهاً، بل يصدع بالحق ولا يبالي، فإن خاف على نفسه سكت وفي السكوت مندوحة عن الكذب على الله تعالى!

وأما الذين يطلبون بعلومهم المغانم، فما أعظم جنايتهم على الإسلام! ثمَّ هم بعد ذلك يفقدون أكثر مما يكسبون في الدنيا قبل الآخرة! يقولُ الفضيل بن عياض رحمه الله: «لو أنَّ أهل العلم أكرموا أنفسهم، وشحّوا على دينهم ، وأعَزُّوا العِلم ، وصانُوه ، وأنزلوهُ حيثُ أنزلَهُ الله؛ لخضعت لهم رقابُ الجبابرة، وانقادت لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، وعزَّ الإسلامُ وأهلُه، ولكنهم أذلُّوا أنفسهم، ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذا سَلِمَت لهم دُنياهم، فبذلوا عِلمَهم لأبناء الدنيا ، يُصيبوا بذلك ما في أيدي الناس؛ فذلُّوا وهانوا على النَّاس»[1].

---

١) انظر: المدخل لابن الحاج: ١/ ١٣٩، المستطرف في كل فن مستظرف: ١/ ٤٩.

وهذا المعنى أخذه الفقيه الشافعيُّ القاضي أبو الحسن الجرجاني في قصيدته الذائعة، فقال:

يقولونَ لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقفِ الذلِّ أحجما

ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوه صانَهُم ... ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لَعُظِّما

ولكن أهانوه فهانوا ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاه بالأطماعِ حتى تَجَهَّما

فإن قُلتَ جَدُّ العلم كابٍ فإنَّما ... كبا حين لم يُحرَس حماه وأُسلِما

وقد قال الله جلَّ وعلا للنبي ﷺ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء].

هكذا خاطب الله سبحانه نبيه ﷺ، يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآيات: "ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد، وأريناك أنَّ مصلحة الشدة في الدين والتنويه بأتباعه، ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا، لا تُعارضها مصلحةُ تأليف قلوب المشركين، ولو كان المسلمون راضين بالغضاضة من أنفسهم استئلافاً للمشركين، فإنَّ إظهار الهوادة في أمر الدين تُطمع المشركين في التَّرقِّي إلى سؤال ما هو أبعدُ مدىً مما سألوه،

فمصلحةُ ملازمة موقف الحزم معهم أرجحُ من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم، أي: فلا فائدة من ذلك.

ولولا ذلك كلِّه لقد كدت تركنُ إليهم قليلاً، أي تميلُ إليهم، أي توعَّدتهم بالإجابة إلى بعض ما سألوك استناداً لدليل مصلحةٍ مرجوحةٍ واضحة، وغفلة عن مصلحةٍ راجحةٍ خفيَّة، اغتراراً بخفَّة بعض ما سألوه في جانب عِظَمِ ما وُعِدوا به من إيمانهم،..

والركونُ: الميلُ بالرُّكن، أي بالجانب من الجسد، واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب،.. أي لولا إفهامنا إياك وجه الحقِّ؛ لخشي أن تقترب من ركون ضعيف قليل، ولكن ذلك لم يقع. ودخلت قد في حيِّز الامتناع فأصبح تحقيقُها معدوماً، أي: لولا أن ثبَّتناك لتحقَّق قربُ ميلِك القليل، ولكنَّ ذلك لم يقع لأنَّا ثبَّتناك"[1]، فنسألُ الله الاستقامةَ والثبات، فإن من ثبت نُصر وظهر، فالعاقبة للتقوى، ومن اللطائف التي يحسن ذكرها في هذا المقام أنَّ سورة النصر جاءت بعد سورة الكافرون، وفي الترتيب إشارة تُشعرك بأنَّ الصدع بالحق، والثباتَ على الدِّين، والصبرَ أمام الإغراءاتِ والتهديداتِ وكافةِ المساومات، تكون نتيجته النصر

---

(١) التحرير والتنوير: ١٤ / ١٣٥.

والتمكين، فإذا سلكتَ هذا الطريق كما سلك النبي ﷺ، ورفضتَ كما رفض كلَّ المساومات، كانت العاقبةُ لك، وكان ما أُمِر به من القول تلقينٌ للحجة في وجه المجادل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون]، إلى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، والنتيجة للثبات على هذا النهج: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة].

وكذلك جاء قوله سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ جاء بعد قوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾. وقد جاءت هذه الآية، وآية الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ بعد مساومات من كفار قريش ليحقِّق بعض مطالبهم، حتى يستجيبوا له ويؤمنوا به.

الالتفاتُ الجائز والرُّجوع إلى الحقِّ

إنَّ الإقبالَ على المقرَّرات بعزمٍ وجدٍّ، وتركَ التَّشاغل عن الصَّوارف والالتفات إليها، أمرٌ مقرَّر كما مرَّ، وهو القاعدة الثابتة إذا حُرِّرت الأهداف وعُرفت الطريق وقُرِّرت الوسائلُ واتُّخذت التَّدابير، لكنَّ هذا لا يعني ألا يلتفت الإنسانُ أبداً لعارض، بل قد يكون الالتفات محموداً في بعض الأحوال، ومنها:

أولا – إذا كان رجوعاً إلى الحق، فالإنسان عُرضة للخطأ وإن تحرز، فمتى استبان للمرء أنه يقصد ما لا يصحَّ له قصده، أو سراباً لا طائل وراءه، أو شيئاً نفعُه أقلُّ من جهده، فعليه أن يتوقَّف، ثم ينظرَ ويتريثَ في تحديد هدفٍ وراءه طائل، ثم يصحِّح المسار، وكثيرٌ من الفضلاء ابتدروا مشاريع كانوا يظنون أن فيها خيراً، ثم بدا لهم بعد نصح بعض أهل العلم تركُها فتركوها، إما لما هو أنفع أو ما هو خير، ولذلك فإنَّ مما يعصم كثيراً من هذا الخطأ استشارةُ أهل العلم والتجربة في المشاريع قبل الشروع فيها، حتَّى لا يشرع فيما فيه محظور يظنه جائزاً، أو في شيءٍ نفعُه قليل، والحاجة إلى غيره ماسة.

ثانيا – إذا كان قد حدَّد الهدفَ وحرَّره، لكنَّه أخطأ الطريق، فعليه أن يتوقَّف وأن يُعيدَ النَّظر في طريقه، وهذا من الرجوع إلى الحقِّ أيضاً، والرجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التَّمادي في الباطل، فمن جعل هدفه الإصلاحَ مثلاً، لكنه سلك الخطة الغربيَّة، فتأثر بالليبرالية، أو سلك الخطة الثورية، فتأثر ببعض أهل البدع، ثم بدا له خطأُ الطريق، فواجبٌ عليه أن يعودَ ويسلك السبلَ الشَّرعيَّة.

ثالثا – قد يكونُ الهدف محدداً، والوسيلةُ أيضاً جيدة، لكنها كانت تناسب وقتاً ولم تعد مناسبة، ولا سيَّما أن الوسائل قابلة للتغيير، فعندئذ ينبغي تغييرها لما ثبت أنه أكثر ملاءمة، وكذلك إن سُدَّت طريقٌ سلك غيرها، ولا يُعَدُّ هذا تراجُعاً مذموماً، ولكنه من فقه الاستطاعة والقدرة، سواء غيَّر الطريقَ لآخر يوصل نحو نفس الهدف لتعذُّر الأول، أو لمصلحةٍ راجحة، أو غيَّر الوسيلةَ لأخرى أجدى.

وبالجملة؛ فإنَّ الالتفاتَ يكون محمودًا إذا كان ملتزماً بالمنهج الشرعي، ووفقه، ولهذا شواهدُ كثيرة منها:

١- رجوع النبي ﷺ وهو المعصوم مراراً لأقوال الصحابة ﷺ، فلما نزل منزله في بدر، جاءه أحد الصحابة[١] وقال: يا رسولَ الله، أمنزلٌ أنزلك الله إياه أم هو الرأيُ والمشورة؟ فقال: «**بل بالرأي والمشورة**»، فقال الصحابي ﷺ: "هذا لا يصلح"، فأخذ النَّبيُّ ﷺ بقوله.

٢- لما أراد ﷺ في الخندق أن يُصالح بعض القبائل على ثلث ثمار المدينة[٢]، فعن عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله ﷺ بعث إلى عُيينة بن حصن والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا ومن معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فجرى بينه وبينهم الصلح، حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادةُ ولا عزيمةُ الصلح إلا المراوضة في ذلك ففعلا. فلما أراد رسولُ الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أمرٌ تُحبُّه فنصنعه، أو شيءٌ أمرك الله به لا بدَّ لنا من عملٍ به،

---

(١) هو: الحباب بن المنذر بن الجموح ﷺ، وانظر القصة بتمامها في: أسد الغابة لابن الأثير: ١/ ٢٣١.

(٢) معرفة السنن والآثار للبيهقي (٥٧٧٠).

أم شيء تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: «لا، بل لكم، والله ما أصنع ذلك، إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب؛ فأردتُ أن أكسر عنكم شوكتهم»، فقال سعد بن معاذ: يا رسولَ الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشِّرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبدُ الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قِرىً أو شراء، فحين أكرمنا اللهُ بالإسلام، وهدانا له، وأعزَّنا بك، نُعطيهم أموالنا، مالنا بهذا حاجةٌ، فو الله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك»، فتناول سعد الصحيفة فمحاها، ثم قال: ليجهدوا علينا، فأقام رسولُ الله ﷺ وعدُوُّهم محاصروهم[1].

٣- في الحديبية قال رسول الله ﷺ لأصحابه - كما في حديث المسور ابن مخرمة -: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاثَ مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبيَّ الله، أتحبُّ ذلك،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (١٣١٣).

أُخرج ثم لا تُكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بُدنك، وتدعوَ حالقَك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضُهم يحلقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضاً غماً[1]، والمقصود أنهم لما أمرهم رسول الله ﷺ بالحلق تغير الهدف الذي جاؤوا من أجله، فشق ذلك عليهم، لكن كانت المصلحة في رجوعهم عنه، ولم يتردَّد النبي ﷺ فيه بعدما تبيَّن له، بل ندم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، على تأخُّرهم في الاستجابة إلى أمره ﷺ.

وتأمَّل كيف فعل عمر رضي الله تعالى عنه، وهو المسدد الملهم، يقول: أتيت نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحقِّ، وعدوُّنا على الباطل، قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: «**إنِّي رسولُ الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري**»، قلت: أو ليسَ كنتَ تُحدِّثنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتُك أنا نأتيه العامَ**»، قال: قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومُطوِّفٌ به**».

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٠١)، صحيح ابن حبان (٤٩٥٠).

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدَّنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحقِّ، قلت: أليس كان يُحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنَّك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنَّك آتيه ومُطوِّف به[1]، وما هي إلا سويعات وينزل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح].

٤- قال ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت كذا وكذا»[2]، فقد يفعل المرء فعلاً ويرى غيره خيراً منه، فلا غضاضة أن يعدل إلى الخير، ومن ذلك أن يحلف يميناً فيرى غيرها خيراً منها، قال ﷺ: «إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٠١)، صحيح ابن حبان (٤٩٥٠).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٥٧٨)، ومسلم (٢٢١٢).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

٥- ثباتُ أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ في شأن المرتدِّين، فشرح الله صدرَ الصحابة ليُثبتوا عزيمته[1]، ورجعوا إلى قوله، وهذا رجوعٌ إلى الحق يُحمد.

٦- القرآن مليء بتصحيح مسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، بل نجد في القرآن تنبيه النبي ﷺ لبعض المواقف،كمثال: قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ ﴾ [عبس]، ومثال قوله تعالى: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، فالخطأ وارد من العالم ومن الداعية ومن غيرهما، والمهم هو الرجوع إلى الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وهو فضيلة، لكن بشرط أن يكون فعلاً رجوعاً إلى الحق وليس رجوعاً عن الحق، فإنَّ كثيراً من الناس باسم الرجوع إلى الحق يرجعون عن الحقِّ ويتخلَّون عنه، وبعضُهم قد يتصوَّر أنَّ من باب ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أن يعاند، وينصحه الناصحون ويُبيِّنون له أنه قد أخطأ، ولكنه لا يتراجع ظنّاً منه أنَّ الصلابةَ في الحقِّ تقتضي ذلك! أما المسلم

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٣٤٦) ومسلم (٥٤).

العاقل، فإذا كثر الناصحون من أهل العلم والخبرة، فإنه يلتفت وينظر، وأما من تأتيه النصائحُ والتنبيهات من الفضلاء والعلماء تترى، ثم هو جامدٌ مصرٌّ على رأيه لا يلتفت ولا يتأمل، فهذا مغترٌّ يحسب أنَّه يُحسن صنعاً.

المُشـــاورة

من أعظم ما يُعينُ الإنسانَ على مواصلة سيره، والاستمرارِ في طريقه، أن يشاور قبل أن يشرع، قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران] ومدح الصحابة بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]، وهكذا كان النبي ﷺ، فالشورى منهج نبويٌّ وأسلوب حضاريٌّ راقٍ، يسدِّد به المرء رأيه، ويستفيد فيه من تجارب وعقول غيره، ويجعلهم شركاء يتقاسمون معه همَّه.

ولكن يلزم أن يستشيرَ المستشير خبيراً بما يشاوره فيه، أو عالماً به أو عنده ما يمكن أن يضيفه على أقل تقدير، فالمشاورة استبصار برأي الغير، وتدعيم للفكرة والرؤية، خصوصاً إذا كانت من أهل لها.

والشورى تنفع قبل اختيار الهدف ليحسن الاختيار، وتنفع قبل اختيار الوسيلة ليختار أحسنها وأقومها، وتنفع أثناء السير لتقويم الطريق وتسديد السير، فينبغي أن لا نغفل عنها[1].

---

(١) في رسالتي (فقه الاستشارة في القرآن) فصلت في ذلك، وبيَّنت سبل الاستشارة وآثارها.

خـاتمة

وفي الختام أوصي إخواني المسلمين جميعاً، في كل مكان، بالصبر على طريق الحقِّ، فإنَّ العاقبةَ فيه حميدة، لا تيأسوا ولا تجزعوا مما يُصيب الأمة أو مما تلقونه فيه، فالفرج قريب، قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف]، بل إنَّ من خصائص طريق الحقِّ العجيبة: أنَّ الذي ينقطع فيه أو يموتُ عليه، فإنه يصل مباشرة إلى مُراده وغايته، كما حدث للرجل الذي قتل مائة نفس!

فأبشروا وأمِّلوا، فالإسلام قادم، والأمة قادمة، وحذارِ من الوهن أن يتسلل إليكم ، وحذارِ من الهزيمة النفسية أن تُقعدكم، فالأمة منصورة ، ونصر الله قريب ، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون، وأشير في هذا الصدد إلى مقالتين كتبتهما قبل عشر سنوات، ونُشرتا في موقع (الإسلام اليوم)، ثم في موقع (المسلم) بعد ذلك لأهميتهما وعلاقتهما بهدف هذا الكتاب، الأولى بعنوان: لا أستطيع مستحيل، والثانية بعنوان: بل أستطيع! بيَّنتُ فيهما أنه لا مستحيلَ مع

العزم والجدِّ، إلا ما كانت استحالتُه شرعيَّةً أو طبعيَّةً، وما سوى ذلك لو أقبل عليه المرءُ بجدٍّ وعزم، مُهملاً الشَّواغل والصَّوارف، لا يلتفت إلى المثبِّطات، فإنه قَمِنٌ ببلوغ غايته فيه، أسأل الله أن يُحقِّق لي ولكم الآمال، وأن يُبلغنا الغايات، وأن يرزقنا الثبات، والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلَّى الله وسلم على عبده ورسوله محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرسٌ تفصيليٌّ

مقدّمة:
٥
ضابطٌ منهجيٌّ قرآنيٌّ، وسنَّة نبويّة، تدعو إلى السير بلا توانٍ ولا تردُّد، نحو الهدف القاصد، ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ.

النَّهيُ عن الالتفات والمُضيُّ قدماً نحو الهدف المنشود: ٩
قوله عزّ وجلّ: {ولا يلتفت منكم أحد} تكرّر في موضعين من قصّة لوط عليه السلام وفيه تنبيهات إلى معانٍ عظيمة.

أسباب الحديث عن هذا الموضوع وأهميته: ١٣
الكيد اليهودي النصراني المعاصر. حملة التّشكيك التي يقودها العلمانيّون.
اضطراب بعض الدعاة. الإفراط والتفريط والغلوُّ والجفاء.
الاستيحاش من طول الطريق. الصّبر واليقين هو سبيل الإمامة والتمكين.

خطواتٌ أربع: ١٨
حدِّد هدفك ورؤيتك في الحياة.
قيِّم هدفك أو مشروعك تقييماً شرعيّاً.
حدِّد الوسائل المناسبة لبلوغ هذا الهدف وتحقيق هذا المشروع.
توجَّه نحوَ تحقيق هدفك أو مشروعك، ولا تلتفت عنه إلى غيره.

معنى الالتفات وتفسير الآية: ٢١

معناه: نظرٌ إلى الخلف، انصرافاً عن القصد، معنويّاً أو حسّيّاً.

نُهوا عنه: كي لا يرَوا عذاب قومهم، أو لئلا ينقطعوا عن مقصدهم.

المقصود: جمع الهمّ على قصد الخروج والنَّجاة، وبلوغ الغاية والمقصد.

الآية الكريمة وإشارات منهجية: ٢٧

ثمَّةَ وِجهةٌ وهدف منشود، مقصودٌ المسيرُ إليه: {حيث تؤمرون}، وثمَّةَ طريقٌ يوصل إليه، وثمّة وسائل وتدابير يجبُ التزامُها في سبيل ذلك.

منهج الأنبياء عليهم السلام في ذلك التوجيه الرباني: ٣٠

١- نوح عليه السلام ومعالجته الطويلة قومه: ٣٠

٢- إبراهيم عليه السلام يبيّن المنهج: ٣٣

٣- موسى عليه السلام على الطريق: ٣٦

٤- محمد ﷺ وسلَّم يوضح السّبيل: ٤٠

أولا : التشجيع نحو الأدوار والتخصصات والمشاريع.

ثانيا : عدم احتقاره لعمل خيرٍ مهما كان صغيراً.

ثالثا : حادثة الهجرة وتطبيق المنهج كاملا.

رابعا : يوم بني قريظة ودفعه أصحابه نحو المقصد.

خامسا : يوم خيبر: (امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك).

سادساً : النهي عن الالتفات في العبادة.

توجيهات قرآنية تؤكد المعنى: ٥٠

آياتٌ عديدةٌ في كتاب الله حضَّت على السَّير في الطريق قُدُماً، دون التفاتٍ أو تشاغل ببُنَيَّاتِه، أو التَّأثُّر بالعوارض القاطعة عنه.

التفات الوجه والتفات القلب: ٥٢

نهيُ لوطٍ عليه السلام عن الالتفات، كان يشمل الالتفات القلبيَّ، وإبراهيم عليه السلام عصمه الله وأيّده لمَّا انصرف بقلبه عن المشركين، وتعلّق بعزّه وجلاله.

من أسباب الالتفات: ٥٦

أولا: ضعف العزم.

ثانيا: التشتت وعدم وضوح الهدف أو الوسيلة.

ثالثاً: النفس.

رابعاً: الضغوط السياسية.

خامساً: الضغوط الجماهيرية.

الالتفات الجائز والرجوع إلى الحق: ٧١

الالتفات قد يكون محموداً، ومنه:

أولاً- إذا كان رجوعاً إلى الحقِّ.

ثانياً - إذا كان على نيّة المراجعة والاستيثاق من صحّة الطريق.

ثالثاً - إذا لم تعُد الوسيلة ملائمةً للظروف الجديدة.

وقد ورد في السّنّة ما يدلُّ على وقوع المراجعة والالتفات الجائر، من النّبيِّ ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.

المشـــــاورة: ٧٩

منهج نبويٌّ وأسلوب حضاريٌّ، واستبصار برؤى أهل الخبرة، وتكون قبل الشروع في العمل، وقبل اختيار وسائله.

خـــاتمة: ٨٠

الأمّة قادمةٌ، فحذارِ من الوهن والهزيمة النّفسية!

المحتويات

مقدمة.	٥
النَّهيُ عن الالتفات والمُضيُّ قدماً نحو الهدف المنشود.	٩
أسباب الحديث عن هذا الموضوع وأهميته.	١٣
خطواتٌ أربع.	١٨
معنى الالتفات وتفسير الآية.	٢١
الآية الكريمة وإشارات منهجية.	٢٧
منهج الأنبياء عليهم السلام في ذلك التوجيه الرباني.	٣٠
توجيهات قرآنية تؤكد المعنى.	٥٠
التفات الوجه والتفات القلب.	٥٢
من أسباب الالتفات.	٥٦
الالتفات الجائز والرجوع إلى الحق.	٧١
المشـــــاورة.	٧٩
خـــــاتمة.	٨٠
فهرسٌ تفصيليٌّ.	٨٣